

الفصل السابع

تحديث الثقافة والتعليم في عهد محمد علي أولا - التغير الثقافي

مصادره :

عندما أدرك محمد علي حاجة المجتمع المصرى الى التغير كانت المشكلة التي برزت أمامه هي المصدر الذي سيستمد منه عناصر التغير وعوامله . هل يمكن الاعتماد على ثقافة البلاد في التغير وخلق الجيل الذي سيقوم بالتغيير؟ لقد علمنا من دراستنا السابقة مبلغ ما كانت عليه هذه الثقافة من جمود وما كانت تعانيه من افتقار شديد الى علوم العصر ومباهجه . ونزيد على ذلك بإيراد تلك الملاحظة الهامة التي أوردها « باورنج » في تقريره عن مصر في عهد محمد علي^(١) ، فقد ذكر أن التعليم الذي كان يقوم على أساتذة الشريعة في المعاهد الدينية لتنشئة رجال الدين المسلمين ، قليل الجدوى بل أنه ليهبط في مستواه حتى يبلغ من التفاهة حداً الأقصى ، فقلما كان يلقي درس في الأخلاق . أما الآيات القرآنية التي تحض على الفضائل فقد كان حظها من الذكر والتفسير أقل مما تحظى به آيات تتصل بالأمور الشكلية في الاسلام .

بل ان محمد علي حتى بعد أن شرع في التغير وادخال العلوم الحديثة ، وقف بعض الأزهريين موقف العداء لهذه الجهود .

وخلاصة الأمر ، أن لم يكن الكتاب والجامع ينفعان في خلق الجيل المطلوب لأحداث التغير ، فقد مضى عليهما زهاء ستة قرون ولم ينتج هذا النوع من الناس ، ولم تكن كتب اللغة والدين تكفى لتكون تلك المهارات ، فقد قرأتها الأجيال المتعاقبة قروناً دون أن تكسبها . بل لقد كان الاختصار على هذه الكتب من وسائل جمود المجتمع .

(١) محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد علي ، ص ٦٦٤ .

وتحول زعماء البلاد بذلك من الفلسفة الاجتماعية الى الفلسفة التربوية وجعلوا مدخلهم الى القوة المادية عن طريق القوة الفكرية ، وجعلوا وسيلتهم الى ذلك معاهد العلم الحديث وكتبه ، بدلا من العادات والتقاليد وترتب على ذلك انشاء نظام تعليم لا تكون دراسة الدين فيه غاية لذاتها ، بل وسيلة الى الايمان والعقيدة التي لا تصد عن هذه الحياة وانما تكون قوة دافعة تتضمن النجاح فيها ، ولا تكون دراسة اللغة غاية في ذاتها بل وسيلة الى المعرفة الحقة بعلوم الكون وعلوم الحياة بنظام يجمع الى هذه اللغة وذلك الدين دراسات أخرى في العلوم الحديثة وفي الصناعة تكون قادرة على خلق ذلك الجيل القوى الذى يستطيع أن يحارب الاستعمار بأساليبه المختلفة (١) . واتجه محمد على لتحقيق ذلك الى أوروبا واتجه أول ما اتجه الى إيطاليا حيث كانت تربط بينها وبين مصر فى ذلك الحين روابط وثيقة ترجع الى ماض بعيد ، فكان طبيعيا والحال كذلك أن تصبح الإيطالية أولى اللغات الأجنبية التى يقرر محمد على تدريسها فى مدارسها وتترجم اليها الكتب الى سائر اللغات . وكان من الطبيعى أن يرسل بعوثة الأولى الى إيطاليا .

ولكن ذلك كله تغير فيما بعد خاصة بعد انهيار الامبراطورية الأولى فى فرنسا ونزوح كثير من الفرنسيين الى مصر ، والتحاق كثير منهم بخدمة محمد على مما جعل من فرنسا المصدر الرئيسى فى مد المجتمع المصرى بعناصر التغير الثقافى المختلفة وكان لذلك تأثيره الكبير على التعليم .

وسائله :

واذا كان محمد على قد أدرك أنه لابد من الاعتماد على الثقافة الغربية كمصدر لأحداث التغير المطلوب ، فما هى الوسائل التى لجأ اليها لنقل علوم الغرب الى مصر ؟

اتجه محمد على أول الأمر الى استخدام الأجانب ، ولكنه أدرك أن الاكثار منهم ليس من الصواب فى شئ ، فكثير منهم - على كفايتهم فى النظم الحربية والاقتصادية كما عرفت - بلادهم فى ذلك الوقت - يجهلون أغراض الحكومة وقد يعرفون أعمالها عن قصد أو عن غير قصد ، وقد يجهلون أيضا

ما تحتاجه بلاد ناشئة كمصر من تلك النظم الحربية والاقتصادية ، وقد يرجع هذا الى جهلهم بلغة البلاد وعادات أهلها وطباعهم .

وكان محمد على لا يثق فى كثير منهم ، ويرى أنهم يعملون لمصلحتهم الذاتية قبل أن يعملوا لمصلحة الدولة التى تنفق عليهم ، فهم يتقاضون مرتبات باهظة وكثير منهم يجهلون اللغة العربية ، فيعين لهم مترجمون ليكونوا عوناً لهم فى عملهم ، وفى الصلة بينهم وبين الحكومة .

وعندما جاء هؤلاء المعلمون الأجانب ينقلون العلم الحديث الى تلاميذنا ، لم تفكر السلطات التعليمية فى الكتاب كركن أساسى فى هذا ، وانما فكرت فى المعلم والتلميذ ووضعتهما وجها لوجه فى حجرات الدرس وتركزت الأمر للمعلمين يلقون دروسهم والتلاميذ يكتبون منهم ما يسمعون . ولكن سرعان ما ظهرت خطورة هذه الطريقة ، فكان التلاميذ يأخذون العلم محرفاً ، وكانوا لا يملكون وسائل الاستذكار وكانوا اذا تركوا المدرسة ليعملوا فى دفاتر الحكومة ومرت عليهم السنون لم يجدوا فى أيديهم ما يرجعون اليه فيما كانوا يتعاطونه من الفنون ، حتى اضطرت الدولة كحل لمواجهة هذه المشكلة الى أن تجرى امتحاناً للفنيين من موظفيها كل سنة ومن ظهر عجزه أعادته الى المدرسة لبدأ تعليمه من جديد .

وهكذا ظهرت الحاجة الى الكتاب المدرسى ، وهكذا بدأت حركة توفيره ، وظهرت منه أنواع جديدة . ولم يكن المجتمع فى ذلك الوقت المبكر يملك المصادر التى تستقى منها هذه الكتب (١) .

وكان عليه أن يتجه أولاً الى الغرب يستقى منه العلم كما استقى الفكرة . وكان موقف المجتمع العربى حينئذ شبيهاً بموقف المجتمع العربى فى صدر الاسلام عندما طلب العلم ولم يكن يملك مصادره ، ووقف وجها لوجه أمام الفرس والهنود والاعريق ، وكان لابد من أن يلجأ الى وسيلة أخرى وهى الترجمة .

وقد شرع محمد على بالفعل فى جمع الكتب من مختلف البلدان . وواخذ يوزع منها ما يصلح للتدريس فى مدارس على المترجمين لترجمته حتى

(١) أبو الفتوح رضوان : الكتاب المدرسى ص ٧٦ .

تكون بأيدي التلاميذ والأساتذة على السواء طائفة من الكتب التي لم يكن لهم غنى عنها ، كما صار ينتقى كتباً أخرى يريد أن تترجم له خاصة .

والتأمل في جملة الكتب التي ترجمت يجد أن أكثر ما ترجم كان في الفنون الحربية والبحرية ، . فقد ترجم فيها ١١١ كتاباً ، وهذا أمر بديهي لا يحتاج الى تعليل فالجهود الحربية استنفدت معظم وقت محمد على وحكومته ، وبلى هذه الفنون ، الطب البشري فقد ترجم فيه ٣٤ كتاباً وذلك للصلة الوثيقة بين مدرسة الطب والجيش . أما الطب البيطرى ، فقد ترجم فيه ١٢ كتاباً ، والعلوم الرياضية بفروعها المختلفة ترجم منها ٣١ كتاباً (١) .

أما الدراسات الأدبية ، فلم تبلغ من العناية قدر ما لقيت العلوم والفنون العلمية ومع هذا فقد كان التاريخ أكثرها فترجم فيه ٢٤ كتاباً ، وتليه الجغرافيا وما يتصل بها من علوم كالرحلات والجيولوجيا وترجمت فيها ٨ كتب .

وكانت العلوم النظرية البحتة أقل خطراً من غيرها ، فترجم في الأدب كتاب ، وفي المنطق كتاب ، وفي الاجتماع كتاب ، وهذا أمر طبيعي تفسره أيضاً روح العصر .

ولكن هذه الطريقة في الأخذ عن الغربيين كانت بطيئة من جهة ، وغير مأمونة من جهة أخرى ، لأن اختيار الكتب التي تنقل ، ثم المترجمين الذين يقومون على نقلها ، لا يخلوا من ذلل ، ومن ثم فقد رأى أن الوسيلة الأنجح هي اعداد الرجال الذين يدرسون هذه الآراء والنظم والعلوم في بلادها والى جانب هذه الآراء والنظم والعلوم ، يدرسون لغة البلاد التي يتلقون فيها دراساتهم حتى اذا عادوا الى مصر كانوا قادتها في السير بها في طريق الحضارة الجديدة ، فهم يحلون محل الأجانب في الأعمال التي تخصصوا لها ، ويقومون في الوقت نفسه بترجمة الكتب الى العربية .

وعاد الكثيرون من أعضاء هذه البعثات ، وقد أفادوا الفائدة الكبرى ، وحققوا أغراض محمد على وحملوا العبء عن الأجانب وأدوا واجبهم باخلاص وأمانة وكان محمد على مع هذا لا يوليهم - بعد عودتهم - الأعمال المختلفة

(١) جمال الدين الشعال : تاريخ الترجمة في عصر محمد على ، ص ٢٩ ملحقات .

ألا اذا استوثق من مهارتهم ، وكان مقياسه فى ذلك ، أن يقوم كل منهم بترجمة كتاب فى الفن الذى اختص فيه ، أما الذين درسوا الصناعة منهم ، فكان يجربهم فيما درسوه حتى اذا أظهروا مهارة وكفاية ، استغنى عن خدمات الأجانب ، وأحل محلهم أهل البلاد فى وظائفهم لأنه كان يرى فى إبعاد الأجانب عن المنشآت الجديدة وإحلال المصريين محلهم صيانة لأموال الحكومة - وفخرا لها ، وكان يفرح الفرح كله كلما سمع عن نبوغ بعض الضباط المصريين .

ثانيا : الملامح الرئيسية لحركة التعليم

بعيدا عن خضم الواقع والأحداث والمعلومات المتعلقة بحركة التعليم فى عهد محمد على ، يمكن أن نوجز الملامح الرئيسية لها فيما يلى :

غلبة العلوم الطبيعية والرياضية :

وخاصية مثل هذه ، تعد نتيجة منطقية للسياسة العامة للدولة فى ذلك الوقت فما دامت هذه السياسة تتطلع الى التوسع وتحقيق الأحلام الامبراطورية ، فان استخدام العلوم الحديثة يعتبر السبيل الأهم ، والطريق المستقيم الموصول الى تحقيق الهدف ، ومن هنا كان أول ما فكر فيه محمد على من بين المدارس العالية ، مدرسة الهندسة ، خاصة وأن البلاد - حتى يمكن أن تبلغ المرتبة المرجوة من القوة - كانت بحاجة الى الكثير من أعمال البناء والعمران ، وهذا وغيره مما يتطلب وفرة كبيرة من المهندسين .

ويؤخذ مما أورده الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) أن أول مدرسة للهندسة بمصر يرجع تأسيسها الى تلك السنة ، وذلك أن أحد « أبناء البلد » - على حد تعبير الجبرتى - واسمه (حسين شلبى عجوة) اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه ، وقدم نموذجا الى محمد على ، فأعجب بها وأنعم على مخترعها بمكافأة ، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة فى دمياط . وأخرى فى رشيد^(١) .

. . .

فكان هذا الاختراع باعنا لتوجيه فكره الى انشاء مدرسة للهندسة فأنشأها فى القلعة .

(١) تاريخ الجبرتى : ص ٩٥٢ .

وبالطبع لم يقتصر الاهتمام على تعليم علوم الهندسة ، بل شمل كذلك علوم الطب والصيدلة والولادة • لذلك أسس محمد على مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ بناء على اقتراح الدكتور كلوت بك ، وقد أنشئت فى أول الأمر فى المستشفى العسكرى بأبى زعبل لتوافر وسائل التعليم الطبى والتمرين • والغرض منها تخريج الأطباء المصريين للجيش ثم صار الغرض عاما بأن صار الأطباء يؤدون الأعمال الصحية للجيش وللبلاد عامة •

وألحق بالمستشفى حديقة للنبات فيها كل ما تنبت الأرض من العقاقير والنباتات النادرة • وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة ثم مدرسة القابلات والولادة تعلم فيها اللغة العربية وفن الولادة ، وألحق بها مستشفى صغير للنساء ، كذلك نجد عددا آخر من المدارس التى تعلم فيها العلوم الحديثة مثل (١) :

- مدرسة المعادن بمصر القديمة ، أسست فى سنة ١٨٣٤ م •
- مدرسة المحاسبة ، بالسيدة زينب ، أسست سنة ١٨٣٧ •
- مدرسة الفنون والصنائع (وتسمى مدرسة العمليات) أسست سنة ١٨٣٩ م •
- مدرسة الزراعة بنبروه ، ثم نقلت الى شبرا سنة ١٨٣٨ م •
- مدرسة الطب البيطرى ، أنشئت أولا برشيد ، ثم نقلت الى أبى زعبل ثم الى شبرا •

وتجلى الاهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية بصورة أكثر وضوحا فى البعثات التى أرسلت لطلب العلم فى أوربا ، فقد كان التخصص فى هذه العلوم هو الغالب بعد العلوم العسكرية ، بل يكفى أن نعلم أنه فى سنة ١٨٣٢ أرسلت بعثة كاملة من اثنى عشر تلميذا للتخصص فى العلوم الطبية وحدها وقد نبغ معظمهم وخلدوا أسماءهم بما قاموا به من الأعمال الجليلة • وتجلى نبوغهم فى نشر العلوم الطبية فى مصر وخاصة مدرسة الطب تدريسا وترجمة وتأليفا ، وفى الاضطلاع بالأعمال الصحية فى البلاد ، وتلاميذها كانوا أوائل مدرسة الطب المصرية بأبى زعبل ، فكانوا ثمرتها ، واختارهم

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، ص ٤٤٧ •

كلوت بك ليتمموا علومهم في باريس حتى اذا عادوا عينوا أساتذة في مدرسة الطب .

وكذلك كانت قد أرسلت قبل ذلك في سنة ١٨٣٩ م بعثات صناعية الى النمسا وانجلترا وفرنسا ، وكانت بعثة فرنسا لدراسة صناعة البصمة وآلات الجراحة والساعات والصباغة وصناعة الشمع والأقمشة والأسلحة .
أما بعثة النمسا فكانت لدراسة صناعة النسيج والصوف ، وبعثة انجلترا لتعلم الميكانيكا وصناعة المدافع والصيني وغيرها . الخ .

كذلك تبين لنا غلبة هذه العلوم من استقراء بسيط للكتب التي الفت أو ترجمت في المدارس المختلفة ، ويذكر الدكتور الشيال أن الرحالة الإيطالي (بروكي) عندما زار المكتبة التي أشرف على تكوينها عثمان نور الدين بعد عودته من بعثته الى مصر في سنة ١٨١٧ م قال أنه رأى بها كتباً تبحث في فنون الحرب والزراعة والرياضة .

وقام الدكتور كلوت بك بوضع العديد من الرسائل والبحوث والكتب في العلوم الطبية مثل :

- العجالة الطبية فيما لابد منه لحكماء الجهادية .
- مبلغ البراح في علم الجراح الخ .

وهذه كتب اما ترجمت لتدرس في مدارس الطب . . واما رسائل وضعها كلوت بك لخدمة الحالة الصحية في مصر اثر انتشار الامراض والأوبئة بها .

وأيضاً نجد لمحمد بيومي أفندي جملة مؤلفات في الهندسة والرياضيات، ومنها كتاب (جر الأتقال) وكتاب (الجبر والمقابلة) ، ترجمه عن الفرنسية وكتاب (الهندسة الوصفية) في مجلدين و (جامع الثمرات في علم حساب المثلثات) ترجمه عن الفرنسية . الخ (١) .

٢ - ازدهار التعليم العسكري :

لم يشهد تاريخ مصر حتى أوائل القرن التاسع عشر ازدهارا في التعليم العسكري مثلما شهد في هذا العهد ، فالدولة عسكرية بالدرجة الأولى ،

(١) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في عصر محمد علي ، ص ٥٢ .

والمشروعات التوسعية كانت تتطلب بصفة مستمرة مزيدا من الضباط والجنود والأسلحة ، لا أى ضباط و جنود ولا أى أسلحة ، وانما جنودا على علم بأحدث النظم العسكرية ، وعلى وعى بأحدث الأساليب والفنون الحربية ، وأسلحة حديثة تتجاوز حدود ما كانت عليه الأسلحة من قبل فى مصر من أذكار ودعوات وسيوف وخيول ، الى المدافع والبارود والبنادق وغير ذلك من أسلحة الفتك والضرب والهجوم ، وكل ذلك لابد أن يتم عن طريق مدارس عسكرية وفقا للنظم الحربية الحديثة .

ففى سنة ١٨٢٠ م ، تم فتح مدرسة حربية فى أسوان لتخريج ضباط الجيش ، واستعان فى سبيل ذلك بعدد من الضباط الأروبيين لدرائتهم بالنظم والأساليب العسكرية الحديثة ، وكان على رأس هؤلاء ضابط فرنسى من ضباط الامبراطورية النابليونية هو الكولونيل « سيف » .

وقد نقلت المدرسة بعد ذلك الى اسنا ، وكان محمد على يوجه اليها اهتماما زائدا فيطلب دائما الاطلاع على أحوال تلاميذها ، ويبحث بابنه ابراهيم المتابعة ما يتم فيها من تعليم .

كذلك أنشئت مدرسة (أركان الحرب) ، أسسها الضابط الفرنسى (بلانا) فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٢٥ ، ومدرسة البيادة التى أنشئت فى الخانكة فى سبتمبر سنة ١٨٣٢ لتخريج ضباط القوى المشاة بالجيش المصرى ، ومدرسة السوارى التى أنشئت فى أبريل سنة ١٨٢١ ، وخصصت لها سراى مراد (بك) بالجيزة ، ويذكر (كلوت بك) أن هذه المدرسة كانت تشبه الى حد كبير مدرسة (سومور) الحربية فى فرنسا .

كذلك أنشئت مدرسة خاصة بالمدفعية بناء على اقتراح تقدم به ضابط أسبانى يدعى (دى سيجويرا) وكان ذلك سنة ١٨٢١ فى بلدة (طرة) .

وقد أنشئت مدرسة مصرية حربية بباريس ليتعلم فيها التلاميذ المصريون العلوم الحربية وجعلت رئاستها لوزير الحربية .

وعندما شعر محمد على بضرورة امتلاك مصر لأسطول بحرى جديد وجه همه الى تأسيس دار صناعة وترسانة كبرى بالاسكندرية ، وقد استعان لتحقيق هذا المشروع بمهندس فرنسى على جانب عظيم من المهارة والحدق يدعى المسيو (سريزى) . وأخذ المسيو سريزى هو و (الحاج عمر) فى

تدريب الشبان على التعليم البحرى حتى تخرج منهم الامباشية والجاوشية والضباط ممن امتازوا بالهمة والنشاط والذكاء وصاروا تحت ملاحظة الحاج عمر المذكور . واصبحت ترسانة الاسكندرية على قدر كبير جدا من الاتساع والحركة والنشاط ، وكانت بمثابة معهد لتعليم الشبان المصريين بناء السفن وترميمها ودراسة فنون البحرية .

كذلك امر محمد على باعداد طائفة من الموسيقيين لكل آلاى وأحضر من أوربا ما يلزم الجيش من الآلات الموسيقية ، وكذلك أحضر المدرسين الأوربيين لتعليم المصريين الموسيقى الأفرنجية الحربية فأنشأ فى الخانكة معهدا لتعليم الموسيقى وقد أبدى التلاميذ المصريون اتقاناً وبراعة ونبوغاً فى فنون الموسيقى شهد بها الأفرنج . قال المسيو (مانجان) فى هذا الصدد : ان أولئك الشبان الفلاحين قد أبدوا من السهولة فى توقيع الألحان من النوتات ما أدهش العارفين بالفن خاصة الأفرنج ، .

مظهر آخر لازدهار التعليم العسكرى وهو أن الجزء الأعظم من الكتب التى ترجمت فى هذه الفترة كانت فى الفنون والعلوم الحربية والبحرية ، وأصبحنا نجد العديد من المؤلفات العسكرية ، فمثلا نجد لأحمد عبيد أفندى كتاب (تعليم البيادة ومناوراتها) و (تعليم الحيلة ومناوراتها) و (تعليم السوارى) .

كذلك فان عددا من أعضاء البعثات كان يرسل للتخصص فى هذه العلوم والفنون ، ومن هنا نجد عمر طوسون يذكر لنا مثلا ممن أرسلوا لتعلم الانشاءات البحرية (محمد أنيس) و (محمد الراعى) و (عيسوى جاد) و (محمد يحيى) و (عارف أفندى) و ٠٠٠ الخ .

٣ - هيمنة الدولة على التعليم :

كانت كل الدلائل تشير الى ذلك التحول الضخم فى بناء مصر من حيث صيرورتها دولة عسكرية . ومن خصائص هذا النوع من الدول أنه يتطلب - كنتيجة منطقية وحتمية - أن تبسط الدولة يدها على موارد الثروة المختلفة فى البلاد سواء كانت هذه الثروة مادية ، أم بشرية حتى يمكن أن توجهها فى خدمة الأهداف العسكرية ومن هنا وجدنا سياسة (الاحتكار) تطبع السياسة الاقتصادية فى البلاد ، فيلقى محمد على نظام الالتزام بالنسبة للملكية الزراعية ، ويضع يده هو على جميع الأراضى واهبا حق استغلال

بعضها لفئات معينة تكون له عوناً وسنداً وكذلك سيطرته على أنواع التجارة المختلفة وخاصة التجارة الخارجية ، وكذلك ألوان النشاط الاقتصادي المتصل بالمصانع والمؤسسات التي أنشئت حديثاً .

ولما كان ذلك يتطلب جهازاً بشرياً معيناً ، فقد كان من الضروري كذلك أن تبسط الدولة يدها على التعليم كمصدر للثروة البشرية اللازمة للبناء الجديد .

وهكذا - ولأول مرة - أصبح التعليم في مصر تحت سيطرة الدولة ، بعد أن ظل طوال العهود السابقة جهداً شعبياً خالصاً .

بيد أنه للحق وللتاريخ ينبغي أن نؤكد هنا أن السيطرة لم تمتد لتشمل كل أنواع التعليم ، ذلك أننا لا ننسى أن القطاع التعليمي الأكبر وهو الأزهر والكتاتيب كان خارجاً عن نطاق هذه السيطرة . كذلك كان هناك لون من التعليم الأجنبي لم يخضع أيضاً لاشراف الدولة ، ومن هنا فإن هذه السيطرة اقتصرَت على ما أنشأه محمد علي من مدارس .

ولما كانت المعاهد قد أنشئت لتحقيق أهداف عسكرية فقد خضعت لاشراف ديوان الجهادية حتى سنة ١٨٢٦ . وعلى الرغم مما قد يوحى به ذلك من شيوع التحكم ، إلا أن الذي حدث هو العكس ، ذلك أن ديوان الجهادية كان مشغولاً بمشروعات محمد علي العسكرية مما جعله لا يشرف على هذا المدارس اشرافاً كاملاً ودقيقاً . ويضاف الى ذلك ، الاختلاف بين التكوين الفني للديوان والعمل العلمي الذي يتم في المدارس مما ساعد أيضاً على إبعاده عن السيطرة الكلية . ومن هنا وجدنا مدير كل مدرسة مستقل بالعمل بها .

ثم كلف محمد علي بعد ذلك عدداً من خبراء التعليم بتنظيم المدارس سنة ١٨٣٦ مما أدى الى اقامة لجنة مؤلفة من بضعة رجال من خريجي مدارس أوربا لتتولى المحافظة على النظام المزمع قبوله ولتبحث فيما سيعرض عليها دواما من أمور القراءة والكتابة والتعليم بالمدارس ، وهي اللجنة التي عرفت باسم (شورى المدارس) ولم يعن هذا انفصال المدارس عن ديوان الجهادية لأن مهمة اللجنة كانت استشارية فنية فقط .

وقد كان هذا عاملاً هاماً ساعد على ظهور نزاع بين ديوان الجهادية ومجلس الشورى ، ولما كثرت المدارس وتعددت أوجه النشاط التربوي

وتنوعت ، تبين لمحمد على أنه من الضروري أن يكون للمدارس ديوان خاص بها ، فتم انشاء ديوان المدارس فى عام ١٨٣٧ فيما يذكر الدكتور أحمد عزت عبد الكريم .

كذلك كان محمد على يهتم بمتابعة أحوال المبعوثين فى الخارج ويتشدد فى مراقبتهم ومحاسبتهم كما يتضح لنا ذلك مما ذكره الطهطاوى فى « تخلصى الابريز » .

وأيا كانت طريقة وضع الكتاب المدرسى فقد كان من الضروري استصدار أمر من الوالى شخصيا بطبع الكتاب يحدد فيه عدد النسخ ويأمر فيه بتوزيعه على من ألف من أجلهم من التلاميذ .

وقد كانت هذه الاجراءات الدقيقة فى طبع الكتب المدرسية تطبيقا لأول قانون مطبوعات وضع فى مصر ، وهو قانون ١٣ يوليو ١٨٣٣ ، وهو ينص على أنه لا يجوز أن يطبع أى كتاب الا اذا صدر أمر بطبعه من الوالى شخصيا .

بيد أننا اذ نذكر أن الدولة هى التى كانت تسيطر على شئون التربية والتعليم لا ينبغي أن ننسى أن قيادتها كانت أجنبية الى حد كبير ، يؤيد ذلك ما جاء فى تقرير (بوالكمت) من أن « أبناء العرب وهم الجمهرة العظمى من السكان يعاملون على أنهم قوم حلت بهم الهزيمة ، ليس ثمة سوى عمل واحد يطالبون بأدائه هو خدمة الأرض وزراعتها ، أما الوظائف والسلطان فمن نصيب شعبين غريبين عن مصر هما الترك والمماليك » .

٤ - وظيفة التعليم :

لعل أهم معيار يمكن أن نفرق به بين التعليم الحديث والتعليم القديم هو تلك الاجابة التى نتلقاها عن سؤال : لماذا نعلم ؟ فالاجابة بالنسبة للتعليم القديم هى أننا نعلم من أجل الاستمتاع الفكرى والتأمل العقلى ، أو أننا نعلم من أجل تهيئة الناس لعالم آخر يتطلب عزوفا عن الدنيا وما تصطبخر به من أمور معاشية . والاجابة بالنسبة للتعليم الحديث هى اننا نتوسل بالتعليم لمغالبة الحياة ، أو بمعنى آخر نتعلم لنعيش ، لتناهل لأداء أدوارنا فى الحياة .

ومن هنا كان قولنا أن ما أنشأه محمد على من تعليم كان تعليمًا حديثًا لأنه يتضمن هذه الخاصية الهامة ، وهى أنه كان تعليمًا وظيفيًا ، بمعنى أن كل مدرسة من المدارس لم تنشأ إلا لأعداد التلميذ لشغل وظيفة معينة ولأداء منشط خاص يتطلبه المجتمع الحديث .

— فالمستقرىء للكتب المترجمة يجد على الرغم من أنها أصلاً قد وضعت ككتب مدرسية يدرسها التلاميذ ويمتحنون فيها ، إلا أنها كانت تتعرض غالباً لموضوعات تمس مشكلات المجتمع المختلفة وحاجاته الرئيسية :

✽ فالدكتور (برنار) الأستاذ بمدرسة الطب يؤلف كتاباً يترجم إلى العربية بعنوان المنحة فى سياسة حفظ الصحة .

✽ والدكتور (فيجرى) يؤلف كتاباً يترجمه (السيد حسن غانم الرشيدى) بعنوان « الدر اللامع فى النبات وما فيه من الخواص والمنافع » .

✽ بل قد يكون الكتاب غير مقرر أصلاً ، ولكن عندما يسمع بموضوعه وبأنه مما تحتاج البلاد لدراسته يبادر باستيراده وترجمته وتقريره على الطلاب .

كذلك فإن دراسة نشأة عدد من المدارس تبين أنها ما أنشئت إلا للأعداد لوظيفة تحتاجها البلاد ، فبالنسبة لمدرسة الألسن — مثلاً — نجد أن الطهطاوى رأى البلاد فى حاجة إلى طبقة من العلماء الأكفاء فى الآداب العربية ، وآداب اللغات الأجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأفرنجية وخاصة الفرنسية ، وليكونوا حلقة الاتصال بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، وينهضوا بالأداة الحكومية فى المناصب التى تعهد اليهم ، فاقترح على محمد على إنشاء مدرسة الألسن . ونظرة إلى ما كان يتم تعليمه فى هذه المدرسة توضح أيضاً مدى وفائها بالحاجة التى أنشئت لها ، فقد كانت عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والانجليزية ، وعلوم التاريخ والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية .

— ولما أتم محمد على تنظيم حكومته وقسمها إلى دواوين وأقسام ، شعر بضرورة توفير عدد من الموظفين يتقنون الكتابة على أساس حديث منظم . وكان الأقباط يحتكرون الكتابة منذ قرون فكانوا كتب الدواوين وجباة

الأموال وصيارفة الأقاليم وملتزمى الجمارك فأراد محمد على أن يعد موظفين يقومون على هذه الأعمال فأنشأ كذلك مدرسة المحاسبة سنة ١٢٥٢ هـ .

- كذلك لما كانت النظم والمؤسسات الحربية والاقتصادية والتعليمية الحديثة التى أدخلها محمد على فى مصر بحاجة الى (ادارة) معقدة ومنظمة معا ترعاها وتيسر لها سبل التوفيق والنجاح ، وتمكن الحكومة - حكومة محمد على - من أن تهيمن عليها هيمنة دقيقة مما يتيح لها أن توجه هذه النظم والمؤسسات الى الطريق التى تبغى ، فقد تحتم على الحكومة أن تنشئ مدارس لتخريج الموظفين الذين يقومون على ما نظمت الحكومة من دواوين ومصالح وأقلام ، وكانت مدرسة (الادارة الملكية) من المدارس التى أنشأتها الحكومة لهذا الغرض سنة ١٨٣٤ .

وإذا كان هذا الاتجاه قد أفاد البلاد فائدة محسوسة فى ذلك العهد ، الا أن طريقة التعليم القائمة ، والسبل التى سلكت فى تناول أمور التعليم ، قد ضيقت من هذا الهدف ، فلم يعد يقصد به أن يعلم أبناء الناس ما يستعينون به على أمور الحياة ومناشط المجتمع المختلفة ، ولكن قصد به أن يعملوا ما تحتاجه « الدولة » من وظائف وأعمال ، ومن هنا نفهم تلك الملاحظة التى لاحظها (بورنج) فى تقريره ، اذ يذكر أن الفتى فى ذلك الوقت ما يكاد يتعلم القراءة والكتابة حتى يزهد فى احتراف أية صناعة ، ولو كان من ورائها الشهرة ، فهو يؤثر أن يكون كاتباً ضئيل الأيراد ، على أن يكون صانعاً يكسب المال الوفير ، وذلك لأن الحصول على لقب (أفندى) كان مطمحاً أسمى من السعى وراء الغنى .

- وبالنسبة للبعثات نجد أن كل عضو فيها قد أرسل لكى يعد لمهنة معينة (١) .

ومن أجل هذا أخذ طلاب البعثات بالشدة والصرامة حتى لا تضيع الأموال التى كانت الدولة تنفقها عليهم هباء منثوراً ، فاما أن يمضى الوقت الذى يقضيه فى الخارج فى تحصيل العلم المطلوب والنجاح والتوفيق فى ذلك واما الرفت والعودة بهم الى مصر .

(١) عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ، ص ٣٠٩ .

ولا شك فى ان الوظيفة الكبرى التى صمم التعليم وشكل من أجلها هى « الحرب » بناء على اعتقاد مؤداه أن العسكرية هى طريق التمدن والتقدم ووسيلته ، ومن هنا نفهم ما كتبه أمين سامى فى كتابه (التعليم فى مصر) ، من أنه قد سبق تلك الأعمال المختلفة (المدارس والادارات) « التأسيسات التى كانت وسيلة للنتيجة الميمونة الطالع لانشاء الجيش المصرى بالنسبة للتمدن » . بل ويصرح كذلك بأن « الحرب وان كانت مجلبة للمصائب الخصوصية التى تتبعها ، الا أنها كانت أقوى البواعث لايجاد التمدن » . ويؤكد أنه لا يوجد برهان على تأثير الحرب مباشرة فى جميع فروع التمدن أحسن مما جاءت به فى حالة مصر « ذلك أن كل شئ فيها كان على قدم الاجراء والعمل ، وكل شئ بدأ فى عالم الوجود عقب الترتيبات العسكرية » .

٥ - بدء انتشار التعليم الأجنبى :

واذا كان محمد على قد استعان بعد كبير من الأجانب لبناء الدولة المصرية الحديثة ، وإذا كانت مصر منذ الغزو الفرنسى قد أصبحت مطعما لكثير من الدول الاستعمارية الأجنبية ، فقد كان طبيعيا بعد ذلك أن تشهد البلاد بداية انتشار المدارس الأجنبية فى هذا العهد بداية حقيقية ، خاصة وأن الدولة العثمانية نفسها لم تكن فى وضع يسمح لها بأن تقف فى وجه النشاط الأجنبى فى ولايتها .

وارتباط الارساليات بالاستعمار يمثل وجها واحدا من الأيديولوجية التى صدرت عنها ، أما الوجه الآخر ، فهو أن الارساليات فى أهدافها ووسائلها قد انفصلت عن المنهج الذى وضعه السيد المسيح للدعوة الى دينه . ولو رجعنا الى المفاهيم الاصلية التى نادت بها المسيحية الأولى ، لوجدنا المسيح يرفض أن يكون الايمان بدينه ثمرة التهديد أو الرشوة . فالمبشر الذى يملأ كيسه مالا أو يحتمى بعلم الكتائب العسكرية المنتصرة - هذا المبشر فى نظر المسيحية الاصلية يعطل عمل المسيح . ومن باب أولى ذلك الذى يستغل تبشيره بالمسيحية لتحقيق المنفعة واستغلال الشعوب .

وأن صفحات التاريخ لتمتلئ بهذا الاستغلال الشائن للدين . فى الهند

وأفريقيا والصين ونيوزيلندا ٠٠ والقصة طويلة ٠ جاء فى تقرير جمعية التبشير الانجليزىة عام ١٨٤١ : « هل من الممكن أن ينكر أحد أن هذه الجمعية قد ساهمت بصورة رئيسية فى ضم أروع اقليم الى تاج ملكة بريطانيا ؟ » ٠ وتواصل الجمعية تقريرها فتقول : « الحقيقة أننا هنا أمام واحد من أعظم مشاهد الامبراطورية البريطانية الاستعمارية لأن وجود مستعمرة نيوزيلندا المزدهرة يرجع الفضل فيه الى شجاعة « صموئيل » مارسدن وإيمانه حينلقى بنفسه وسط قبائل الماورى هناك ، فالرسالية التى أسسها سنة ١٨١٤ روضت الجنس ، وبعد ذلك تدفق المستعمرون » (١) ٠

- ومن أهم الجاليات الأجنبية التى شهدت مصر ، وكان لها أثرها فى التعليم الأجنبى ، الجالية الأرمنية ، فالأرمن كانت لهم ظروف خاصة تختلف عن باقى الجاليات الأجنبية فى مصر ، فهم قوم تعرضوا لاضطهادات كثيرة وعدة غزوات ، وقد ساعدت موجات الغزو الكثيرة التى تعرضت لها أرمنية على بعثتهم فى نواحي العالم المختلفة ، وأصبحوا من أكثر شعوب الأرض هجرة ، وأول مدرسة أنشئت فى ذلك الوقت هى التى أنشأها الأرمن فى سنة ١٨٢٨ ، وكانت تابعة للكنيسة الأرثوذكسية فى بولاق ٠ ومن الملاحظ أن مما ساعد الأرمن على ذلك هو أنهم كانوا يحتلون مكانة خاصة عند محمد على ، ويكفى للدلالة على ذلك أن نذكر أسماء بوغوص ، وأرتين وغيرهما ، وهؤلاء قد تبوأوا مناصب كبيرة ، واستطاعوا عن طريق هذه المناصب أن يشاركوا فى تسيير دفة الأمور ومساعدة أقرانهم الأرمن فى الحصول على التعليم المطلوب لهم ٠

- ويذكر (هيوارت دن) أنه فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٢٩ أسس أحد الايطاليين مدرسة للغات واسمه (Uwais — Samani a.r Rumi) خى الموسيقى ، وإن كان من المحتمل أن يكون سورى الجنسية ثم استوطن فى غرناطة أو إيطاليا قبل أن يستقر فى مصر ٠ وفى هذه المدرسة ، كان يعلم العربى والفرنسية والإيطالية ، وكان يقوم بالتعليم أيضا فى المنازل ٠

- أما بالنسبة للمدارس اليونانية فيذكر أحد الكتاب (Politis) أنها كانت موجودة عام ١٨٢٥ وزادت بعد ذلك ، ويستشهد فى ذلك بشهادات

(١) وليم سليمان : تباينات الفكر المسيحى فى الواقع المصرى . مجلة الطليعة ، ١٩٦٦ ،

بعض البطارقة ، ولكنه لا يذكر هنا شيئا عن نشاط هذه المدارس فيما بين سنة ١٨٢٦ و سنة ١٨٤٧ ، ويحتمل - فيما يقول (دن) أن المدرسة اليونانية بالقاهرة قد أغلقت ثم أعيد فتحها فى سنة ١٨٤٣ تحت اسم (هيبانتى اليونانية) الأرثوذكسية The Hyppapanti Greek Orthodox School وفى خلال الفترة التى أغلقت فيها المدرسة كان اليونانيون يرسلون أبناءهم الى المدارس المصرية الحكومية ، اذ تذكر بعض المراجع أن مدرسة قصر العينى كان بها تلاميذ يونانيون .

ومن الملاحظ أن الجالية اليونانية فى الاسكندرية كانت أنشط منها فى القاهرة ، وكانت تنقسم الى مدرسة ابتدائية يونانية ومدرسة فرنسية بها . والمدرسة التى أشرنا اليها كانت قد أنشئت فى حى الحزاوى بالقاهرة ،

- وكان طبيعيا أن ينشط الفرنسيون فى ذلك الوقت أكثر من غيرهم . وكان السبيل الى ذلك هو الارساليات الدينية التى مدت نشاطها الى مجال التعليم ومن أولى الارساليات التى وفدت الى مصر (راهبات الراعى الصالح) Bon Pasteur أسست مدرسة لها فى السادس من يناير سنة ١٨٤٦ وكانت مدرسة ابتدائية للبنات وأقيمت فى الموسيقى .

وقد بدأ (الفرير) فى التدريس فى مدرسة الآباء العذارين التى أفتتحت سنة ١٨٤٠ ، وظل الفرير والعذارين على وفاق لمدة ست سنوات ثم اختلفوا بعد ذلك ، وكان الفرير قد اتفقوا مع العذارين على أن يقتطعوا جزءا من الأرض التى منحتها محمد على باشا هدية للعذارين لبناء مدرسة عليها وتم هذا بالفعل فى سنة ١٨٤٧ ، الى غير ذلك من أوجه النشاط التعليمى .

٦ - مركز التعليم الابتدائى فى هيكل التعليم :

من المعروف أن التعليم الابتدائى يقوم بدور القاعدة الشعبية العريضة بالنسبة لهيكل التعليم ، ومن ثم فهو يحتل المركز الأهم ويحظى بعناية أكثر ويستأثر بنصيب أوفر من غيره من مراحل التعليم الأخرى حتى أن ما يحتله هذا التعليم من مركز فى هيكل التعليم يمكن أن يستخدم كشاهد يستدل به على نظرة الدولة الى التعليم وتقديرها لقيمته بالنسبة للنهوض الاجتماعى والاقتصادى . وهو بطبيعة الحال أيضا يعد المدخل الأول الضرورى لكل حركة اصلاح أو تجديد اجتماعى . فاذما رأينا أن محمد على لم يبدأ بهذا المدخل ،

أيقنا بما لا يدع مجالا للشك أن رغبته الملحة فى الحصول على الرصيد البشرى اللازم لبناء الجيش والأسطول وجهاز الدولة الإدارى فى أقل فترة زمنية ممكنة ، كانت هى الدافع الرئيسى وراء الجهود التعليمية المختلفة ، لأن الذى يبنى لأمة ، والذى يهدف الى بناء مجتمع ، يدرك أن هذا الهدف يحتاج الى وقت طويل . وأن هذا الوقت الطويل لا ينبغي أن يشبط العزائم ويوحى باليأس . فبناء المجتمعات لا بد وأن يقوم على قاعدة متينة ثابتة الأركان ومن هنا كان الاصلاح والتجديد من القاعدة أسلم وأنجح مما لو بدأ هذا الاصلاح من الأجزاء العليا من المجتمع .

والتعليم الابتدائى فى هذا العهد كان يتم - كما هو معروف - فى المكاتب التى كانت متشرة فى أرجاء البلاد طولا وعرضا ، فاذا سمعنا بعد ذلك أن محمد على قد أنشأ ما يسمى بمكاتب المبتديان سنة ١٨٢٣ على الأرجح ، فإن هذا قد يوحي بأنها كانت نظاما جديدا يختلف عما هو قائم ، ولكن هذا لا ينفى احتمال أنه لم يخلقها من عدم وانما - على الأرجح - كانت نتيجة لتحويل بعض المكاتب القديمة .

وتقول النصوص التى بين أيدينا أن « المراد من مدارس المبتديان تحضير التلاميذ وتهيئتهم الى مدرسة التجهيز ونشر مبادئ العلوم للأهالى » فاذا كان الأمر كذلك ، فالى أى حد وعلى أى وجه كانت الدولة جادة فى ذلك؟ الواقع اننا اذا عرفنا أن أطفال هذه المكاتب كانوا يتعلمون القراءة والكتابة والعمليات الأربع الأولى فى الحساب وأنهم كانوا يقرءون فى مبادئ الصرف والنحو وفى الفرائض الدينية ، وأن العناية كانت موجهة الى حفظ القرآن الكريم وقراءة بعض الكتب الأزهرية فى الصرف والنحو والتوحيد ، وأحيانا يضيفون الى هذا قراءة كتب فى الجغرافيا أو الأخلاق ، لأدركنا أنه من الصعب الاقتناع بأن مثل هذا الاعداد كان كفيلا بالفعل لأن يمد المدارس التحضيرية بالأعداد اللازمة لها من خريجي المدارس الابتدائية وان كان الدكتور أحمد عزت عبد الكريم يلتبس له العذر فى ذلك (١) .

ومن الأدلة التى يستند اليها فى أن محمد على كان جادا فى أن تهدف هذه المدارس الى « تعليم وتثقيف أبناء العباد » ، أنها عندما أنشئت بلغت خمسين مكتبا ، معظمها بالأقاليم ، بينما كانت المدارس التجهيزية لا تزيد

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر محمد على ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

على مدرستين فقط ، بطبيعة الحال ، كان من غير المعقول أن ينشأ هذا العدد الكبير من المكاتب من أجل مدرستين تجهيزيتين فقط . بيد أنه يمكن الرد على ذلك بما لحق هذا العدد من المكاتب من تناقص ، فعندما تم تنظيم سنة ١٨٣٦ أنقص عددها الى ٤٥ مكتبا وفى ٢٤ شعبان سنة ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ م) صدر أمر عال بالموافقة على الترتيب الذى وضعتة اللجنة التى ألقت برئاسة ابراهيم (باشا) لتنظيم التعليم فى مصر ، وكان الترتيب يقضى بالغاء مكاتب الابتدائيين بالأقاليم والقاهرة ، وتوزيع التلاميذ على فرق الجيش . بل ان الهدف يبرز بصراحة ووضوح فى التنظيم الذى تم مرة أخرى بعد ذلك بعدة شهور حيث نص على ضرورة ألا يفتح من المدارس الابتدائية الا « العدد الذى تمس الحاجة اليه سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم باعتبار هذه المدارس (الابتدائية والتجهيزية) أصلا أساسا للمدارس الخصوصية » .

وقد ظلت هذه المكاتب متأثرة بروح الأزهر ، فقد كان الطلاب يقضون وقتا طويلا لحفظ القرآن الكريم ، حتى أن محمد على رأى أن ذلك كان « ضياعا لستينين أو ثلاث سنوات من مدة دراسة التلاميذ » فكتب الى المديرين قبل تنظيم المكاتب بأن يوصوا المدرسين بأن يجتزلوا من تحفيظ القرآن الكريم بالالماء به ، لكى يفرغ التلاميذ بعد ذلك للبدء فى دراسة الكتب الأخرى .

كذلك فقد استأثر « خط التلاميذ » باهتمام الحكومة فراقبت بدقة مدى حسنه وجودته . وشكلت الكتب محور الدراسة والامتحانات بدلا من أن يكون هذا المحور موضوعات أو مواد دراسية . وان كان هذا لا ينفى محاولة للحكومة فى أن تستعين بالكتب الحديثة ، فقد كتبت الى وكيلها فى لندن بأن يرسل اليها « كتبا مطبوعة مؤلفة لصغار التلاميذ بحيث تميل أذهانهم اليها » ولم تمض سنوات حتى وجدنا بين أيدي التلاميذ كتباً فى الجغرافيا ، وكتباً فى الأخلاق والحساب والهندسة وكتباً تدعى (حكايات الأطفال) و (عقلة الصباغ) .

وكانت المكاتب تضم بين جنباتها تلاميذ مصابين بعاهاث مختلفة ، وكانت الأمراض فاشية بينهم ، ويرجع هذا من ناحية الى سوء التغذية ، اذ كانت هذه المكاتب فرصة سانحة لبعض رجال الادارة لاختلاس تعيينات التلاميذ ، كذلك فان ابنية كثير من المكاتب وخاصة فى القرى لم تكن تصلح اماكن للدراسة والسكن . وكان كثير منها خربا متداعى الأركان وكان بعضها من الضيق بحيث كان تلاميذها يتلون فيها الدروس نهارا ، ويضطرون للمبيت بمنازلهم ليلا ، بينما كانت القاعدة فى التعليم الذى أنشأه محمد على

أن يبيت التلاميذ فى المدارس • وكانوا يأكلون ويشربون ويقراون فى الغرف التى يجلسون فيها •

٧ - الأسلوب العسكرى فى تسير امور التعليم :

ويكاد أن يكون هناك اتفاق تام بين مؤرخى هذه الفترة على أن « العسكرية » التى اتسمت بها الدولة المصرية فى عهد محمد على قد أصبحت نمطا عاما وأسلوبا رئيسيا يتخلل كل عمل من الأعمال حتى فى مجال التعليم ، فالتلاميذ ينهضون من نومهم عند شروق الشمس على صوت الطبل أو البوق (البورى) ، وبعد الاغتسال واطباءة شىء من الدرس يتناولون طعام الصباح ، ثم الى العشاء ، ثم الى استذكار الدروس ، ثم الى حجرات النوم وقد مضى من الليل ساعتان أو ثلاث ، وهم فى هذا كله يصطفون صفوفًا ويتحركون على صوت الطبل أو البوق ويؤدون التحية العسكرية •

وكانوا يقسمون الى « أرط » و « بلوكات » فتلاميذ المدرسة التجهيزية - مثلا ، حيث تتسع المدرسة لآلف وخمسمائة - كانوا يكونون ثلاث « أرط » وكل « أرط » من أربع « بلوكات » وكل « بلوك » مؤلف من خمسة وعشرين ومائة من التلاميذ • وكبار الطلبة ذوو الرتب العسكرية يقودون البلوكات ، والمدرسون يقودون الأرط • ويختار التلاميذ أوائلهم فيمنحون رتبا عسكرية ويشتركون فى « ضبط التلاميذ وربطهم » فمنهم (الباشجاويش) ، و (الجاويش) و (الأمباشى) •

أما من عداهم من التلاميذ فانفار ، وللتلاميذ الحائزين للرتب ، السلطة على من يليهم فى هذه الرتب والعاطلين منها • كما كان لهم حق توقيع العقوبة عليهم •

وأن نظرة بسيطة الى نظام العقوبات المدرسية يظهر لنا بما لا يدع مجالا للشك مقدار هذه الروح العسكرية ، فقبل أن تنظم الحكومة لوائح للعقوبات ، ترك أمر توقيع العقاب الى ناظر المدرسة ومدرسيها فكان بعضهم يكثر من استخدام الكرباج ، وقد غاب بعض نظار المدارس الأجانب ما سن بعد ذلك فى المدارس التجهيزية من ألوان العقاب على أساس أنها لم تكن تلائم البيئة المصرية وقد اشتملت العقوبات على أمور مثل : لبس الجاكطة بالمقلوب والضرب بالكرباج والحبس فى غرفة مظلمة والعزل عن الزملاء والطرد من المدرسة ... الخ •

وتجلت الروح العسكرية كذلك فى اختيار الدولة للتلاميذ ، اذ كانت تخصص لكل مديرية نفرا منهم وتعهد الى رجال الادارة بجمعهم ، فاذا لم يتقدم بهم أهلوههم وهم صاغرون ، سلط رجال الادارة الجند لنزعهم من أحضان أهلهم أو عهدوا الى (المتعهدين) بأن (يوردوا) لهم (الأنفار النافعين) .

ومن هنا لم يكن من المستغرب أن تكثر حوادث الفرار والهروب بين التلاميذ . ولما أرادت الحكومة وضع حد لحوادث الهروب ، واتخاذ اجراء يمكنها من سهولة القبض عليهم قررت نظام الضمانات ، وهو أن التلاميذ حين يجمعون للمكاتب ، يجب أن يكون مع كل منهم « وثيقة » ضمانة بختم شيخ بلده ، ولم تكن تقبل الضمانات التى يقدمها مستخدمو الحكومة .

٨ - تجميد التعليم الدينى :

لم يكن المصريون يعرفون - كما رأينا - من ألوان التعليم حتى أوائل القرن التاسع عشر الا ذلك التعليم الذى يتم فى الجامع الأزهر والكتاتيب والمساجد الكبرى حتى اقترن هذا التعليم بوجودان الشعب وتفكيره ، ولما كان المجتمع نفسه قد ظل السنوات الطوال يعيش حياته الدينية من حيث الركون الى الغفلة والقعود عن مواكبة التقدم والتطور نظرا لكثرة تلك القيود الاستعمارية التى كانت تشنه عن الحركة ، لم يجد هناك حاجة الى تغيير التعليم القائم وتجديده ، فالوظائف الحكومية معدودة لا تحتاج الا الى تعليم بسيط يمكن الوقوف عليه فى فترة بسيطة ، والاعمال الاقتصادية المختلفة تقف عند حدود دنيا من البساطة والبدائية يمكن تعلمها من خلال الممارسة والنشاط العادى ، ثم هناك الحاجة الى حفظة القرآن وبعض المتفقيين فى أمور الدين ، وهذا ما كان يستطيعه التعليم الدينى .

فلما حدث ما حدث من تغير جوانب الدولة المختلفة فى عهد محمد على ، وأصبح النمط الغربى هو المثال والقدوة لكل ما يفعل ويبنى ، وجد أن تحقيق هذا الهدف لا يكفيه بعض الكتبة وعدد من حفظة القرآن والمتفقيين فى الدين . انه يعتمد بالدرجة الأولى على المهندسين والأطباء والعسكريين ورجال القانون والادارة والمترجمين . فمن أين يمكن أن يلتمس هؤلاء ؟ لقد كان واضحا أن التعليم الدينى القائم فى الأزهر والكتاتيب لا يقوم بهذه الوظيفة .

شعر محمد على أنه لى يغير ما كان قائما بالنسبة للأزهر والكتاتيب فلا بد أن يكون مستعدا لمواجهة العديد من الصعاب ، وأهمها أن يستغرق

زمننا طويلا قد لا يقل عن عشرين عاما ، ومن يضمن له طول العمر حتى يشهد نمره جهوده ، ثم يبدأ باستغلال هذه الثمار في بناء الدولة الحديثة ؟ وبالإضافة الى هذا فالكتابيب منتشرة في كل أنحاء البلاد والاشراف والانتان مع التغيير والتجديد لهذا العدد جهد تعجز عن الوفاء به امكانيات الدولة في ذلك الوقت خاصة في السنوات الأولى . ثم ان الأزهر كانت له منزلة خاصة في قلوب المسلمين في كل مكان ، والامبراطورية التي كان محمد علي يحلم ببنائها ستقوم على هؤلاء المعلمين بالدرجة الأولى ، وبالتالي فلا يستقيم مع هذا أن يهز صورة الأزهر في أذهانهم .

واذن فقد رأى اهمال الأزهر والكتابيب واقامة نظام تعليمي حديث وفقا للنمط الغربي ، ومن ثم بدأت مصر تعرف ذلك الازدواج الخطير بين نمطين من الثقافة : ثقافة دينية تقليدية جامدة ، وثقافة علمية غربية متجددة ، وكان لهذا أسوأ الآثار والشرور التي عانت منها مصر حتى وقت قريب . . . فقد فتت هذا من وحدة الفكر بين أبناء المجتمع وخلق أخذودا ثقافيا رهيبا قل من كانوا يستطيعون عبوره .

واذا كان محمد علي قد أهمل الأزهر والكتابيب لانهما لا يستطيعان مده بالقوى البشرية المطلوبة ، فانه لم يكن يقف عند هذا الحد ، بل كان يتحين الفرص للنيل من الأزهر ورجاله . فقد كان من مقدمة أعماله أن أحصيت جميع الرزق والاحباس (الاوقاف) الموصدة على المساجد والخيرات الكائنة بمصر والصعيد واوقاف سلاطين مصر المتقدمين وخيراتهم ومساجدهم ومكاتبهم ، وقرضت عليها الأموال الباهظة (سنة ١٢٢٧ هـ - ١٨١٢ م) فاحتج المشايخ على ذلك وحاولوا عبثا مخاطبة الباشا في الغاء قراره . وكان لذلك أثره في اقتطاع موارد الأزهر ، وفي التضييق على الاساتذة والطلاب . يقول (فولزر) : « لم يتردد محمد علي في أن يصادر الأراضي الموقوفة على الأزهر وهي واسعة الرقعة بالرغم من أنها موقوفة عليه . وبذلك أوقع أضرارا بنيفة بالاساتذة والطلاب . . . » ويلاحظ (لين) وقد وفد الى القاهرة بعد ذلك الحادث بقليل « أنه بعد أن نزع ملكية الأراضي التي كانت مملوكة للأزهر ، قل عدد الطلبة الذين ينتمون الى الأروقة قنة ظاهرة » .

وقد كان للأزهر وعلمائه بعد جلاء الفرنسيين عن مصر شأن كبير في تعضيد محمد علي وتأييده في الوصول الى ولاية مصر ، وفي المعارضة في عزله واستبداله بغيره . وقد تدخل علماء الأزهر بعرائضهم الى السلطان العثماني لتأييد محمد علي غير مرة . وكان لموقفهم أثره في حشد الشعب من

حوله والتمهيد لظفره وتوطيد مركزه ، وكان على رأسهم عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى ، فقد ألبسا محمد على خلعة الولاية فى بيت القاضى سنة ١٨٠٥ م وكانوا قد اشترطوا على محمد على أن يحكم بمشورتهم نظير مساعدتهم له .

ولكن ما أن يمر عامان الا ونقرأ عن بعض الحوادث التى تبين بداية انهيار منزلة علماء الأزهر (على الأقل بالنسبة لمعاملة السلطة لهم) .

ولعل أكبر ضربة تلقاها علماء الأزهر هى تلك التى نال بها محمد على من السيد عمر مكرم رمز القيادة الأزهرية الدينية الواعية للشعب .

واذ خرجت جماهير الناس فى اليوم الثانى عشر من أغسطس سنة ١٨٠٩ تودع السيد عمر مكرم الى منفاه فكانما يودعون زعامة الأزهر للثقافة والمجتمع المصرى « يشيعة الكثير من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدا للناس ، ولتعصبه على نصره الحق ، فيما يقول الجبرتى .

ولا شك فى أن تجميد التعليم الدينى قد ساعد الى حد كبير على تضائل نفوذ العلماء الأزهريين وانتقال مركز الثقافة من الأزهر الى المدارس والمعاهد والبعثات ، وانكمش العلماء ولم يشتركوا فى حركة التجديد والانشاء فى مختلف نواحيها ، فعجزوا عن الاشتراك فى حروب مصر أو فى ادارة حكومتها أو فى سياستها وأعمال العمران التى قامت بها .

على أن الأزهر ظل مع هذا المورد السائح الذى استمدت منه المدارس الحديثة والبعثات العلمية وتلاميذها . فمنه اختارت الحكومة طلبة المدارس العالية التى أنشأتها وكثيرا من أعضاء البعثات العلمية التى أوفدتها الى أوروبا ، فتخرج منه بواسطة البعثات والمدارس علماء نابھون كان لهم القدح الممل فى نهضة مصر العلمية والاجتماعية ، فالأزهر من هذه الناحية كان له فضل كبير على النهضة العلمية الحديثة ، ومن جهة أخرى فان الحكومة كانت تختار من رجاله بعض المتضلعين فى اللغة العربية لتنقيح وتهذيب الكتب المترجمة للغة العربية فى الطب والرياضيات وغيرها ويسمون المحررين ، وطاقفة أخرى لتصحيح الكتب وطبعها ، وهم المصححون ، ولهؤلاء وأولئك فضل كبير على نهضة التعريب والتأليف .

وقد مكن الأزهر والكتاتيب من اجتذاب العدد الكبير من التلاميذ عوامل كثيرة منها : أن الثقافة الدينية القائمة على تحفيظ القرآن في الكتاتيب ودراسة الكلام والفقه في الأزهر كانت لا تزال تستهوى عقول الناس ، فقد كان الشعور الدينى قويا متسلطا على نفوسهم وعقولهم . وهناك عامل آخر هو أن الحكومة لم تنشئ مدارس في أنحاء البلاد كلها ، بل اقتصرت على عدد محدود من المدارس في حاضرة البلاد وعلى عدد آخر من المكاتب في المدن ، فلم تكف اذن لتعليم الناس كلهم ، فقد كانت هناك قرى بل مدن برمتها محرومة من مكاتب حكومية ، بينما كانت كتاتيب الفقهاء قليلة النفقة البسيطة التكوين منبثة في المدن والقرى .

وكان التلاميذ المترددون على الأزهر أو المساجد أو الكتاتيب أحرارا في الذهاب إليها أو الانقطاع عنها ، ولا يحد من حريتهم الا رغبة الآباء وحث الأساتذة .

٩ - المعلمون :

عندما بدأت حكومة محمد علي بفتح المدارس التي تسير وفقا للنظام الغربى الحديث ، كان من الضروري أن تواجهها مشكلة المعلمين الذين سيقومون بالتدريس في هذه المدارس ، فمن المفروض أن يوجد المعلم أولا ثم توجد المدرسة . فهل كان بالامكان ، الانتظار حتى يعد هؤلاء المعلمون ، ثم تفتح المدارس بعد ذلك ؟ كلا فالذى حدث هو أن الدولة بدأت تبحث عنهم من مصادر عدة :

١ - الأزهر : بعد ما تم توسع كبير في انشاء المدارس الابتدائية والتجهيزية وجدت الدولة في الأزهر معينا لا ينضب تستمد منه حاجتها من المعلمين خاصة وأن المواد التي كان يتم تدريسها فيها كانت تدور حول القرآن الكريم واللغة العربية والدين والحساب وهى مواد مما يستطيع خريجو الأزهر تدريسها . ومن المهم أن نلاحظ أن هؤلاء المعلمين الأزهريين عندما انتقلوا الى مدارس الحكومة لم ينقلوا فقط الى تلاميذها مادة علمية معينة ، وانما نقلوا اليهم أيضا ما عرف به التعليم في الأزهر من حيث قيامه على طريقة الحفظ والاستظهار . بالاضافة الى « نوعية » الكتب التي تعودوا على الدراسة فيها ككتب السنوسية والأجرومية والألفية والكفراوى . الخ .

٢ - الأساتذة الأجانب : ولم يقتصر التعليم في مختلف مدارس الدولة على المواد السابقة ، فقد كانت هناك مواد أخرى حديثة لم يسبق لحريجي

الأزهر أن درسوها وبالتالي لا يستطيعون تدريسها ، مثل اللغات الأجنبية والرياضيات وسائر العلوم الحديثة . ومن هنا كان الالتجاء الى الاستعانة بالأساتذة الأجانب ، وكانت إيطاليا - كما سبق أن قدمنا - هي أولى الدول الأوروبية التي جاء منها مثل هؤلاء الأساتذة . وكان طبيعيا أن يغيظ ذلك الفرنسيين .

ولما حدث التحول بعد ذلك الى الثقافة الفرنسية ، بدأ المعلمون الإيطاليون يقلون خاصة بعد الغاء تدريس اللغة الإيطالية في المدارس المصرية .

٣ - خريجو المدارس الأولى وأعضاء البحوث العلمية : فعندما بدأت المدارس التي أنشئت ابتداء من سنة ١٨١١ تخرج تلاميذها الى مجال العمل مثل القلعة والمدرسخانة وبولاق وقصر العيني ، وجدت الحكومة أن تلاميذها ما داموا قد درسوا العلوم التي لا تدرس في الأزهر كالرياضيات والرسم والتاريخ والجغرافيا فان من الممكن الاستعانة بهم في التدريس بمختلف المدارس الحكومية . وكذلك الأمر بالنسبة للعائدين من البعثات التي أوفدت الى الخارج .

ومما يجب ذكره أن هذه المصادر المختلفة لم تكن تقوم بجهد ما نحو « اعداد » المعلم مهنيا ، حيث أن الفلسفة التي كانت سائدة ، هي أنه يكفي أن يلم المتعلم بالمادة العلمية حتى يمكنه ذلك الامام من نقلها الى الآخرين .

أما كيف كانت مستويات المدرسين ، فهذا ما سوف نتبينه فيما يلي :

١ - معلمو الكتاتيب : لم يكن المعلمون الذين يقومون بالتدريس في مكاتب المبتديان معلمى مواد ما ، فلكل فرقة معلم يدرس لتلاميذها كل المواد المقررة عليهم دراستها . وكان معلمو المكتب على درجات : خوجه أول - خوجه ثان - خوجه ثالث ، ويرأس هؤلاء « باشخوجه » والأول يدرس للفرقة الأولى (النهائية) والثاني للفرقة الثانية ، والثالث للفرقة الثالثة . وكان أجر المعلم ٤٠ قرشا وتعيين نفر ، أما الخوجه الأول فكان يتميز بحصوله على تعيين ملازم ، ولم يكن يتم تعيين المعلم قبل امتحانه حتى يمكن التأكد من أنه على علم وخلق . وفي كثير من الأحيان كان المعلم يوضع تحت « الاختبار » فترة من الوقت في نفس المدرسة قبل تثبيته تعيينه حتى يثبت حسن أخلاقه .

وكان المعلم يحاسب حسابا عسيرا على نتيجة تلاميذه حتى أن معلما

جوزى مرة بحبسه فى المكتب شهرا كاملا لسوء نتيجة تلاميذه ، ولم يؤخذ بالتبرير الذى قانه ، اذ ذكر أن هذه النتيجة راجعة الى « ضيق المعاش » ، وكان على حق فى ذلك ، فقد كان الفرق بين مرتب معلم المكاتب والحلاق والحياط لا يتجاوز بضعة قروش .

٢ - معلمو المدارس التجهيزية . وكانت مرتباتهم تزيد كثيرا جدا عن مرتبات المستوى السابق ، ومع ذلك فقد كان هناك تمييز شديد بين معلمى المواد فبينما كان مرتب معلم المواد - وكان من الأتراك فى أغلب الأحوال - هو خمسمائة قرش ، كان مرتب معلم اللغة العربية مائتى قرش شهريا .

ولم يقتصر واجب المعلم على مجرد التدريس ، اذ أوجبت اللوائح ضرورة اشراف المعلمين على التلاميذ فى غير أوقات الدراسة ، فيصحبوهم فى نزهاتهم مثلا وبتفتشون غرف نومهم ، الى غير ذلك من مهام اشرافية وتوجيهية .

٣ - معلمو المدارس الخصوصية : كالطب والمهندسخانة وغيرهما ، وكان معظم هؤلاء من الأجانب فى أول الأمر ثم بدأت الدولة تعين بدلا منهم ، من المصريين العائدين من البعثات . ومن الطريف أن كلوت بك ناظر مدرسة الطب كان من أشد المتحمسين لتمصير وظيفة التدريس فى مدرسته ، اذ كان يرى أن العلم عندما يدرس بلغة أجنبية لطلاب لا يعرفونها ، فان فى ذلك مضية للوقت ، بجانب عدم ضمان الأمانة والدقة فى الترجمة .

وعندما نظمت المهندسخانة سنة ١٨٤٣ روعى فى تنظيمها أن تشتمل على قسم خاص على مثال مدرسة السنترال بإريس الغرض منه تخريج مدرسين للرياضة بالمدارس الأخرى ومعيدين بنفس المدرسة .

وقد حاولت الدولة تجريب طريقة لتدريس اقتبست من إنجلترا لا يقوم فيها المدرس بالعبء الكبير وانما يقوم به التلاميذ المتقدمون ويسمونهم « العرفاء » .

١٠ - الأسس الفكرية :

على الرغم من أننا لا نستطيع أن نجد فى هذه الفترة معالم فكر تربوى يعكس الأسس الفكرية التى يقوم عليها نظام التعليم القائم أو الآمال المرجوة منه ، ويتبدى فى كتابات المفكرين ، الا أننا نستطيع بالحفر فى أرض الواقع التعليمى ، أن نصل الى « الفكرية » التى صدرت عنها الاجراءات والخطوات

التعليمية المختلفة ، فليس حتما أن يوجد مفكرون يتأملون ويتفلسفون ، بحيث إذا لم نجدهم حكمنا بعدم وجود هذه الفكرة ، فكما سبق أن أوضحنا في الجزء التمهيدى ، فاننا ممن يؤمنون بأن كل سلوك بشرى لابد وأن يعكس أفكارا وآراء معينة سواء شعر بها صاحب هذا السلوك أم لم يشعر ، وسواء وجد من يبرز هذه الآراء ويحللها ويعمقها وينقدها أم لا ، ويمكن أن نشير الى بعض جوانب هذه « الفكرية » فى النقاط الآتية :

● معنى الطبيعة الانسانية : كان المفهوم الشائع لا فى مصر وحدها ، بل فى معظم أنحاء العالم ، أن الانسان يتكون من عقل وجسم ، وأن لنقل الرفعة والسمو على الجسم ، ومن هنا كان الاهتمام بالتربية « العقلية » فى المدارس التى أنشأتها حكومة محمد على يزيد كثيرا عن الصور الأخرى للتربية كالتربية الجسمية والتربية الجمالية والتربية الحلقية . الخ .

● معنى التربية : « وكان طبعيا بعد ذلك أن تكتسب التربية معنى يجعلها مترادف معنى « الأدب الأخلاقى » أو التهذيب ، فكلما كان التلميذ مطيعا هادئا ، كلما كان « مؤدبا » أو حاصلا على التربية المطلوبة فعندما علم ديوان المدارس بأن التلاميذ يتسكعون خارج المدرسة فى الشوارع والأسواق ، نظر الى ذلك على أنه أمر يودى الى « عدم التربية وضياع شرف المدارس ، مع أنها محل اكتساب العلوم والفنون » . لذلك فقد نبه على التلاميذ جميعا بأن يسلكوا خارج المدرسة مسلك الأدب ، ولا يرتكبوا أمورا تخلى بالمرءة كالجلوس على القهاوى والوقوف بالمحلات الغير لائقة » . ونبه الديوان كذلك على نظار المدارس وضباطها أن يفتشوا عن التلاميذ فى أوقات نزهتهم ، فان صادفوا أحدا على غير استقامة ، ضبطوه ، وأعادوه الى المدرسة حالا ووقعوا عليه الجزاء المقرر .

● طريقة التعليم : فعلى الرغم من أن نظام التعليم الذى أقامه محمد على قد قصد به أن يغير الطرق السائدة التقليدية التى كانت قائمة فى الأزهر والتعليم وفقا للطريقة الغربية الحديثة ، إلا أن واقع التعليم يدل على أن ذلك وقف فى كثير من الأحيان - عند حد الشكل دون المضمون وخاصة فى السنوات الأولى لاقامة هذا النظام ، ومن هنا وجدنا أن الدراسة دراسية « كتب » ولم تكن دراسة « مناهج » بمعنى أن تلميذ الابتدائى - على سبيل المثال - يحفظ « القرآن » ويقرأ « علم الحال » والسنوسية : و « الأجرومية » و « الكفراوى » وكتب فى الهندسة والحساب ، ولكنه لا يدرس « الدين » و « النحو والصرف » و « الحساب » . الخ .

كذلك فقد سادت طريقة الحفظ والاستظهار لدى التلاميذ ، وكذلك لدى المعلمين نظرا لأنهم قد رأوا ولمسوا أن الدولة تهتم بالامتحان اهتماما شديدا وترتب نتائج كثيرة على نتائجه .

● التمييز الطبقي : ونحب أن نسجل بادية ذى بدء أن أبناء المصريين قد حصلوا فى عهد محمد على على فرص تعليمية لم يسبق لهم الحصول على مثلها قبل ذلك مئات السنين ، وأن محمد على - كما بينا - كان يظهر فى مناسبات عدة إعجابه بالقدرة المصرية على التعلم ، ولكننا - مع اعترافنا بهذا كله - لا نستطيع أن نفعل شواهد أخرى تؤكد روحا طبقية لم يخل منها نظام التعليم فى ذلك الوقت تقوم على فكرة الاستعلاء الجنسى ، التى يشعر بها الأجانب دائما عند تمكنهم الأمور فى بلد آخر غير بلدهم ، منها على سبيل المثال أنه :

عندما أنشئت مدرسة الزراعة بنبروه سنة ١٨٣٦ ، وأصدر محمد على أمره الى ديوان المدارس بأن يقتصر التعليم فيها على « أبناء العرب » ويقصد أهل البلاد من المصريين « لعدم ميل أبناء الترك لفن الزراعة » ، أما عندما تريد الدولة أن تمد المدرسة الحربية بالتلاميذ ، وتنشئ بقصر العينى مدرسة تجهيزية فانها تلحق بها نحو الخمسمائة من أبناء الترك والشركس والألبانيين والأرمن ، ولم يكن يتسنى أن يدخلها من أبناء البلاد الا من « ساعدته الوسطة » (١) . وأمثلة أخرى عديدة .

ثالثا - أوجه القصور وعوامل الانهيار فى نظام الحكم والتعليم

فى عهد محمد على

التأمر الخارجى :

لما بدأت مصر فى عهد محمد على تنمو وتكبر وتزدهر ، ظهر للعالم أجمع أن هذه الدولة الفتية الجديدة سوف تستقطب الدول التى تحكمها الدولة العثمانية ، ومن ثم فسوف تدب الحياة فى هذه المنطقة وتسرى فى عروقها دماء شابة جديدة وتضييع بذلك أطماع الغرب الاستعمارية وتستمر حمى الأحقاد القديمة ، فكان أن تكاثفت على ما بينها من اختلافات وتضارب فى

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، م ٣ ، ج ٩ ، ص ٤ .

المصالح أحيانا من أجل الحد من استئثار الدولة الجديدة وضربها ضربة قوية تفقدها الوعي والقوة ، فكان ذلك ما حدث بالفعل فى عام ١٨٤٠ بلندن ، وانكمش محمد على فى مصر والسودان ، وقد فقد كثيرا مما كان يملك من حماس وقوة ونشاط وبدأت الدولة تضمحل وتضعف .

ولكن هل يمكن الركون الى هذا فى تفسير ما حدث من انحدار واضمحلال ؟ الحق أن هذا وحده لا يكفى ، فالتأمل فى حركة التعليم بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ يجد أن النشاط التعليمى ظل مستمرا الى حد ما .

واذن فليس التآمر الاستعمارى وحده هو الذى كان مسئولا ، ولكن - فيما يعتقد - فان هذا النظام كان يحمل فى طياته عوامل انهياره واضمحلاله ، هذه العوامل أو المثالب يمكن أن تذكر منها ما يأتى :

١ - **شيوع الاستبداد** : كان محمد على ديكتاتورا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، والديكتاتور بحكم السلطة المطلقة التى يقبض عليها بيده يكون فى معظم الأحيان أقدر على التنفيذ والحسم من الحاكم الديمقراطى ، ولكن السرعة التى يتسم بها الحكم المطلق فى تنفيذ اصلاحاته ، انما تتم على حساب شىء هام هو : ارادة الشعب ، وحتى لو جاءت هذه الاصلاحات وفق هواه ، فان عزله عن اختيارها ومناقشتها ووضع القوانين الخاصة بها يفقده أهم مقومات تقدمه وارتقائه وهو التربية السياسية .

واستبداد محمد على ظهر واضحا فى مجال التعليم كما ظهر فى غير التعليم من مجالات ، والأمثلة عديدة على ذلك ، فقد أورد أمين سامى فى (تقويم النيل) اشارة الى مبلغ ضيق محمد على ممن كانوا يعارضون آراءه ، فقد صدر أمر منه الى وكيل الجهادية فى ٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٩ هـ بأنه علم من اطلاعه على المضبطة المؤرخة فى غرة جمادى الآخرة حصول المعارضة من الشيخ الهوارى فى بعض أمور لا تعنيه . وبالنسبة لعلمه بآدابه لم يقابل بشىء من شورى الأطباء « ويشير بأن المذكور ليس ممن يجب احترامهم بل من الاشرار المحتاجين للايقاظ ، وحتى أن تزويره معلوم لديه من قبل وأن التزامهم السكون وعدم ادراكهم كيفية المذكور ، أوجب استغرابه فيلزم بوصول أمره هذا استحضار المذكور والتنبيه عليه مؤكدا بعدم تدخله فى شىء خارج عن وظيفته وبأن ينفى ويطرد فيما لو حصل اقدمه ثانيا على ما يوجب التشكى منه » .

٢ - « خلق » **الازدواج الثقافى** : فنهضة الأمم و رقيها وتقدمها يعتمد بدرجة أساسية على وحدتها القومية وتماسكها وصلابتها ، ولعل أقوى السبل لايجاد هذا التماسك وهذه الصلابة - بالإضافة الى عوامل أخرى - هو ايجاد الوحدة الفكرية أو الثقافية ، ولا يعنى هذا انكار أهمية التنوع الثقافى الداخلى ، وانما المقصود هو الصورة العامة أو الاطار الكلى . والذي قام به محمد على من افعال تام لشأن التعليم الدينى وبناء نظام جديد غربى النزعة مغاير تماما للأول ، قد خلق ثنائية ثقافية فى انبلاد ، اذ أدى هذا الى أن تظل ألوف عديدة من أبناء البلاد تتعلم وفق طرق قديمة عتيقة ولا يستوعبون ويتحصلون الا على علوم ومعارف معظمها لا يثمر ولا يغنى من جوع ، بينما تتعلم أعداد أخرى تعليما وظيفيا حديثا يسد مطالب الحياة ويشبع - ولو بعض - حاجات المجتمع مما أدى بالناس على مر الزمان الى تفضيل النوع الثانى والى تأخير محاولات اصلاح التعليم الدينى زمنا طويلا ، لأن التعليم الحديث كان يحوى ما كان مطلوبا فى ذلك الوقت .

٣ - **النظام الاقتصادى القائم على الاحتكار** : فلقد احتكرت دولة محمد على القوائم الرئيسية التى كان يقوم عليها هيكل الاقتصاد المصرى ، وكان من شأن هذا الاحتكار أن أفقر السوق من كثير من العوامل التى كانت كفيلة بتنشيطه والعمل على تنويع وازدهار أوجه النشاط المختلفة ، فالربح وحرية الاختيار وحاجات الناس وبعض المنافسة والمبادأة وغير ذلك من عوامل لم تعرف طريقها الى هذا النظام الاقتصادى ، ومن ثم لم تنشأ - خارج أسوار الحكومة - أوجه نشاط اقتصادى جديدة متنوعة أمام الناس بحيث تتطلب فئات جديدة من العاملين كان لابد من اعدادها فى مؤسسات خاصة تعليمية ، ولو أن ذلك قد تم لما حدث ارتباط على بين الحكومة والتعليم ، اذا غابت العلة غاب المعلول ، اذا ذهبت حكومة محمد على ذهب التعليم وانهار . لأن الارتباط كان سوف يقوم بين التعليم وبين أوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى فى المجتمع نفسه .

٤ - **النقل والاقتباس دون مواءمة وتكييف** : فنحن عندما نفرق بين مجتمع ومجتمع لا نفرق بينهما على أساس الذوات الآدمية التى يتكون منها كل منهما لأن هذه الذوات قد تختلف من حيث الطول والعرض والون وشكل الشعر ولونه . الخ ولكنها تتشابه من حيث الخصائص العامة والمميزات الرئيسية للانسان على وجه العموم ، ومن ثم فاننا نقيم التفرقة ونقوم بالمقارنة على أساس آخر هو « الثقافة » لأنها هى التى تحمل فى طياتها كل خصائص المجتمع حيث أنها من صنع الانسان . ومن أجل هذا فليس كل

ما يصلح لمجتمع يصلح لمجتمع آخر • وإن كان هذا لا ينفي وجود حاجات رئيسية وألوان متعددة من الثقافة يمكن أن تشترك فيها عدة مجتمعات ، فإذا كانت الثقافة نباتا اجتماعيا يحمل خصائص التربة الاجتماعية وما يسودها من مناخ ، فانه من الضروري عندما تنقل بعض العناصر الثقافية من مجتمع الى آخر أن نكيف هذا الذي ننقله بما يتفق وظروف وحاجات المجتمع الجديد حتى لا تصبح العناصر المنقولة والمقتبسة نباتا غريبا قد يستمر بعض الوقت ، ولكنه بالتأكيد ما لم يتم هذا التكيف المناسب ستذبل وتضمحل ويلفظها المجتمع الجديد •

وفي كثير مما نقله محمد على كان لا يراعى ظروف المجتمع المصرى وخصائصه على الرغم مما أبداه فى أحد المواقف من ضرورة مراعاة هذا الشرط الهام ، ولكن يبدو أنه - نظريا - وعلى صفحات الورق يقول كثيرا مما كان لا يفعله ، كما تشهد بذلك مقدمة قانون « السياساتمة » فى يولييه سنة ١٨٢٧ •

٥ - **الشعب لا يتبنى الإصلاح المطلوب :** من أهم المبادئ التى يؤكدھا علماء النفس والتربية ، أنه من الضرورى أن تنبع السلطة من داخل الانسان حتى تكتسب الاحترام الواجب والطاعة المفروضة • أما اذا كانت السلطة تفرض دائما من الخارج فهناك - غالبا - الرفض وعدم التقبل وتحين الفرص لضرب السلطة والانقضاء عليها • ويبدو أن الأمم والشعوب تسير وفق نفس المبدأ ، فما لم يشعر الناس بأهمية الإصلاح المطلوب ويدركوا قيمته ويشتركوا فى تحديده وتبنيه ، بحيث ينبثق من جوانبهم فانهم لايتحمسون له ، وإن قاموا بالعمل المطلوب ، فانه يكون من قبيل « تأدية الواجب » •

وقد كان الإصلاح فى عهد محمد على دائما ما يأتى من أعلا ويقر بالقوة بغض النظر عن وعى الناس أو عدم وعيهم ، وبغض النظر عن احساسهم بحاجتهم اليه ، أو عدمه • وليس معنى ذلك أن كل اصلاح يأتى من جانب السلطة ولا ينبع من جوانب الشعب بجانب طريق الصواب ، ولكن من الضرورى - فى هذه الحال - أن تسبقه ، أو أن تواكبه عملية اقناع وتوعية حتى يتم تقبل الشعب له وتحمسه ومن ثم العمل لتحقيقه وتقبل المشاق والمخاطر والصعوبات التى تعترض هذا التحقيق •

ويبدو واضحا من استقراء حركة الإصلاح فى هذا العهد أن محمد على كان واقعا تحت تأثير ذلك الراى الذى عبر عنه (بورنج) بقوله : « لابد أن

يمضى زمن طويل قبل أن يستطاع تغيير طابع الحكومات الشرقية ، اذ ان
الرأى العام بطيء الأثر ٠٠٠ أما اذا لم يكن هناك أى نظام يمثل الصالح العام
تمثيلا كافيا فلا مناص عند ذلك من استخدام القوة ٠٠٠ أما العقل وأما
الحق ، فلا يقام لهما كبير وزن ٠٠٠ ، ٠

٦ - انقطاع الصلة بين التغيير الحادث وتراث الماضى : التجديد أمر

حيوى وضرورى بالنسبة للمجتمعات حتى يمكن لها الاستمرار ومواكبة
التقدم والتطور ، والمجتمع الذى يركن الى الماضى يجتر تراثه ويقع أسير
النصوص والآراء التى سطرها القدماء ، مجتمع متخلف جامد لابد وأن يجد
نفسه فى وقت من الأوقات منعزلاً عن حركة التطور والتقدم العالمى كمتحف
يمثل سالف العصور وغابر الأيام ٠

وذلك حق لا شك فيه ، ولكن من الحق أيضا أن نقول أن تيار الثقافة
متصل السريان ، وأن قطع الصلة بين التغييرات الجديدة ، وبين كل التراث
الماضى أمر يجانبه الصواب ، ان الشجرة فى الوقت الذى تستعين فيه بما
هو فى الخارج من هواء متجدد وشمس وغير ذلك ، تستند فى حياتها على
ما تستمد جذورها فى باطن الأرض ، وليس كل قديم يال ، ومن استعراضنا
لحركة التعليم فى عهد محمد على نجد أنه كان يدير ظهره بصفة مستمرة
لتراث الماضى ٠ واذا كانت بعض ظلال قد ظهرت فى مدارسه من القديم ،
فقد كان ذلك جبرا واضطارا ، أو بلا شعور أو وعى ٠

٧ - ضيق الأفق فى تحديد الهدف من التغيير والاصلاح : فمن المعروف

أنه ما من صغيرة أو كبيرة فى أوجه النشاط المختلفة التى قامت بها حكومة
محمد على ، الا وكان الهدف الرئيسى والأساسى منها هو خدمة الجيش ٠ حتى
هذه المشروعات أو المدارس التى قد يبدو أن لا صلة بينها وبين تحقيق
الأغراض العسكرية ، كانت تخدم هذا الغرض بطريق غير مباشر قد يكون
عن طريق زيادة دخل الدولة لتمكينها من استمرار الانفاق على خطط التوسع
والمغامرات العسكرية ، وذلك من أجل سعادة أفرادهم ورفاهيتهم ، وكل ما عدا
ذلك يكون وسيلة لتحقيق هذا الهدف ، اذ أن حصر الهدف من التغيير
والاصلاح فى هذا النطاق الضيق يجعله دائما عرضة لمخاطر المقاومة الخارجية ،
وارتباط كل شئ بهذا الهدف ، يعيل بعجلة التغيير الى التوقف عن الدوران ،
اذا أصبح هذا الهدف عسير التحقيق تقف القوى الخارجية والمعاهدات الدولية
دون تحقيقه ٠

٨ - الاهتمام بالتكنولوجيا أكثر من الاهتمام بالعلم : إذا كانت التكنولوجيا هي التطبيق العملي لمقومات العلم الأساسية وأفكاره ، فإن الملاحظ أن محمد علي كان يهتم بالتكنولوجيا بدرجة أكبر من العلم . لقد كان متلهفا على سرعة بناء الدولة الحديثة ومن ثم فقد كان متلهفا على الحصول على « النتائج » و « التطبيقات » العلمية التي يحتاجها ، أما دراسة الخطوات والنظريات والجهود العلمية التي مهدت وأدت إلى هذه « التطبيقات » فقد كان ذلك لا يحظى بأهمية كبرى .

٩ - تقدم « حكومي » لا تقدم « اجتماعي » : ولعل من أهم ما يمكن أن يلاحظ على ما حدث من أوجه التقدم والتطور في مصر في ذلك العهد ، أنه كان مركزا في الجهاز الرسمي للدولة وما قد يتصل به من أعمال أو مؤسسات إلى الدرجة التي جعلت منه مجرد « قشرة » خارجية للمجتمع المصري . إن الحضارة تقوم أساسا على العلم في العصر الحديث ، والعلم منهج وطريقة قبل أن يكون معارف ومعلومات لكنه في ذلك العهد كان قابعا داخل المدارس والمعاهد وبعض المنشآت الحديثة ، ولم تصل إشعاعاته إلى جوانب المجتمع المختلفة بحيث يدخل كطريقة تفكير ونهج في الحياة ، وذلك لأن مئات الآلاف من أبناء المجتمع لم تجن من أوجه النشاط الحديثة شيئا ولم تحتك بها إلا من حيث تقديم الأفراد للجيش أو للمدارس ، ومن حيث دفع الضرائب المتكرر أو تسليم المحاصيل الزراعية لتسويقها .

١٠ - تعجل التغيير : إن الثورة - حقيقة - لا بد وأن تتسم بالسرعة في التغيير والتطوير بالإضافة إلى جذرية هذا التغيير وشموله ، ولكن ذلك لا يمكن أن يعني أن يقفز الإنسان السلم دفعة واحدة . . . فهناك من الأعمال والمشاريع ما لا بد من إرسائها على أسس متينة من التفكير ، ولكن محمد علي كان قليل الصبر يتوق إلى الوصول إلى نتائج عاجلة . وقد لاحظ (بورنج) نفسه في التقرير الذي وضعه عن مصر في عهد محمد علي كيف أنه قلما كان يسمح بالوقت الكافي للتفكير في وضع الأسس التي يتوق إلى أن يشيد عليها ذلك البناء الشاهق . لهذا يسرع في غرس الشجرة ، وهو أمر محمود ما في ذلك ريب ، ولكنه يتعجل قطف الزهرة واجتناء الثمرة ، فليس أبغض إليه من أن يرقب الشجرة ويسقيها ثم يقف موقف الانتظار . وقد سـمـع يقول « لقد أدركني الكبر فلا أستطيع أن أنتظر كما يستطيع ذلك من هم أصغر مني ، لهذا يجب الإسراع في تنفيذ كل ما أريد » . ويعقب (بورنج) على ذلك بقوله « ولعل هذا هو السر في حبوط كثير من أغراض الباشا لأنه

بدلاً من أن ينتظر حتى ينمو النبات مع الزمن أو ترسخ جذوره في الأرض ،
يعمد الى القابة فينقل منها أشجاراً ضخمة قد تزهر سويقات قلائل ، أو تبدو
عليها علائم الأزهار ، ثم ينتهي بها الأمر الى الذبول ، .



والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من كل هذا هي أن هذه الدولة قد
انهارت ، لأن كل ما كان يتم فيها لم يكن من أجل مصر وإنما كان من أجل
«محمد علي» ، ومن كان يعمل لمحمد علي ، فإن محمد علي قد مات ، ومن كان
يعمل لمصر فإن مصر حية لا تموت ما دامت هناك حياة .